تأليف الجمعية السرية للدعوة

ابتدأ تأليف هذه الجمعية وعلي بن عبد اللّه بن عباس حي لم يمت بعد، لأنها ابتدأت في أول القرن الثاني وعلي لم يمت إلا (سنة ١١٧) على قول و (سنة ١١٤) على قول. وكان الخليفة من بني أمية إذ ذاك عمر بن عبد العزيز بن مروان، وكانت تتألف من كثير من الدعاة والرؤساء.

وجعل للدعوة مركزان:

أحدهما: بالكوفة التي اعتبرت نقطة المواصلات وأقيم فيها ميسرة مولى علي بن عبد اللّه.

والثاني: بخراسان التي هي محل الدعوة الحقيقي، ووجه إليه محمد بن خنيس وأبو عكرمة السراج، واختير من الدعاة اثنا عشر نقيباً وهم:

١ ـ سليمان بن كثير الخزاعي.

٢ ـ مالك بن الهيثم الخزاعي.

٣ ـ طلحة بن زريق الخزاعي.

٤ ـ عمرو بن أعين الخزاعي.

٥ ـ عيسى بن أعين الخزاعي.

٦ ـ قحطبة بن شبيب الطائي.

٧ ـ لاهز بن قريظ التميمي.

٨ ـ موسى بن كعب التميمي.

٩ ـ القاسم بن مجاشع التميمي.

١٠ ـ أبو داوود خالد بن إبراهيم الشيباني.

١١ ـ أبو علي الهروي شبل بن طهمان الحنفي.

١٢ ـ عمران بن إسماعيل المعيطي.

واختار سبعين رجلاً ليكونوا مؤتمرين بأمر هؤلاء، وكتب إليهم محمد بن علي كتاباً ليكون لهم مثالاً وسيرة يسيرون بها.

obeikandl.com

وقد ظل رجال الدعوة يشتغلون بها من مفتتح القرن الثاني إلى (سنة ١٣٢)، وهي السنة التي تم فيها النجاح وبويع فيها لأبي العباس السفاح.

وهذه المدة تنقسم إلى قسمين متمايزين: الأول عصر الدعوة المحضة الخالية عن استعمال القوة وذلك قبل أن ينضم إلى القوة أبو مسلم الخراساني، وذلك في الوقت الذي كانت الدولة الأموية فيه متماسكة القوى لم ينقسم فيها البيت المالك على نفسه ولم تحصل العصبية القومية بين جند هذه الدولة بخراسان، وذلك نحو (٢٧ سنة). والعصر الثاني عصر استعمال القوة مع الدعوة حينما تهيأت الأسباب الداعية إلى ذلك.

openkandl.com

العصر الاول

(من سنة ١٠٠ إلى سنة ١٢٧)

كان الدعاة فيه يجوبون البلاد الخراسانية، ظاهر أمرهم التجارة وباطنه الدعوة، ينتهزون الفرص ثم يبلغون أمرهم إلى القائم بالكوفة وهو يوصله إلى الحميمة أو إلى مكة حيث يجتمع المسلمون لأداء فريضة الحج. وكان ذلك المجتمع أعظم ساتر لأمر الدعاة، لأنهم كانوا إذا قفلوا من خراسان سافروا حجاجاً. وكانت إقامة محمد بن علي بالحميمة سبباً آخر في انتظام المواصلات وكتم سرها.

وكان أول ما ظهر من أمرهم بخراسان (سنة ١٠٢) حيث جاء رجل من تميم إلى أمير خراسان سعيد بن عبد العزيز بن الحارث بن الحكم بن أبي العاص الذي يقال له سعيد خذينة وقال له: إن ها هنا قوماً قد ظهر منهم كلام قبيح، فبعث إليهم سعيد فأتى بهم فسألهم: من أنتم؟ قالوا: أناس من التجار؟ قال: فما هذا الذي يحكى عنكم؟ قالوا: لا ندري؟ قال: جئتم دعاة؟ فقالوا: إن لنا في أنفسنا وتجارتنا شغلاً عن هذا. فسأل من يعرف هؤلاء. فجاء أناس من أهل خراسان جلهم من ربيعة واليمن، فقالوا: نحن نعرفهم وهم علينا إن أتاك منهم شيء تكرهه. فخلى سبيلهم.

وفي (سنة ١٠٥) انضم إلى هذه الجمعية بكير بن ماهان وهو شيخ عظيم من شيوخ هذه الدولة وكبار دعاتها وكان موسراً فساعد القوم بماله، وصادف أن توفي في ذلك الوقت ميسرة القائم بالكوفة، فأقامه محمد بن علي مقامه، فكان هو ربان هذه الدعوة يأتمر الدعاة بأمره ويسيرون في الطريق التي يشرعها لهم.

كان من أول النكبات التي لحقت بهم أنه وُشِيَ بجمع من دعاتهم إلى أسد بن عبد الله القسري أمير خراسان وهو والٍ شديد قاس فأتى بهم وفيهم أبو عكرمة وأبو محمد الصادق ومحمد بن خنيس وعمار العبادي فقطع أيدي من ظفر به منهم وأرجلهم وصلبهم، وأفلت عمار العبادي حتى أتى الكوفة فأخبر بكير بن ماهان بذلك الخبر المشؤوم، فكتب به إلى محمد بن علي

فأجابه: «الحمد اللّٰه الذي صدق مقالتكم ودعوتكم وقد بقيت منكم قتلى ستقتل» وقد وقع بعد ذلك عمار العبادي في يد أسد فألحقه بإخوانه.

وكان أسد بن عبد اللّٰه أشد ولاة خراسان على الشيعة فكان لا يرحم أحداً منهم وقع في يده بل شرد بهم ونكل ونفى من نفى وقتل من قتل ولذلك لم يكن للدعوة في أيامه كبير أثر حتى عزل عن خراسان (سنة ١٠٩) وتلك ولايته الأولى ثم ولي خراسان مرة ثانية فأعاد معهم سيرته الأولى، ففي (سنة ١١٧) أخذ جماعة منهم فقتل بعضهم ومثل ببعضهم وحبس بعضهم وكان فيمن أخذ سليمان بن كثير شيخ الدعوة ومالك بن الهيثم وموسى بن كعب ولاهز بن قريط وخالد بن إبراهيم وطلحة بن زريق وغيرهم من النقباء فأتى بهم فقال: يا فسقة ألم يقل اللّٰه: ﴿**عفا اللّٰه عما سلف ومن عاد فينتقم اللّٰه منه واللّٰه عزيز ذو انتقام**﴾ (١) فقال سليمان بن كثير: أتكلم أم أسكت قال: بل تكلم قال: نحن واللّٰه كما قال الشاعر:

لو بغير الماء حلقي شرق كنت كالغصان بالماء اعتصاري

تدري ما قصتنا صيدت واللّٰه العقارب بيدك أيها الأمير: إنا أناس من قومك (اليمن) وإن هذه المضرية إنما رفعوا إليك هذا لأنا كنا أشد الناس على قتيبة بن مسلم وإنما طلبوا بثأرهم.

فانظر كيف كان القوم يستعملون العصبيات القومية في أحرج مواقفهم للخلاص مما يقعون فيه أحياناً وقد كان ذلك الجواب سبباً في خلاص هؤلاء النقباء مما وقعوا فيه حيث وجدوا من قومهم من يدبر مع الأمير أمر خلاصهم وقد خلصوا وكانت وفاة أسد (سنة ١٢٠) فتنفست الشيعة بخراسان بعد وفاته.

حصل بعد ذلك في العالم الإسلامي ما كان له أعظم الفضل في نجاح الشيعة وقصور أعدائهم عن فل حدهم وذلك:

أولاً: انشقاق البيت الأموي حتى تزعزع بنيانه وتصدعت أركانه وأول ذلك كان بخروج يزيد بن الوليد بن عبد الملك بن مروان على ابن عمه الوليد بن يزيد بن عبد الملك واستعان على ذلك بالقدح في الوليد ونسبته إلى العظائم من الفسوق والكفر وإحلال ما حرم اللّٰه فكان معه قوم ساعدوه على ذلك وكان بعض بني أمية يتمثل بقول الشاعر:

إني أعيذكم باللّٰه من فتن مثل الجبال تسامي ثم تندفع
إن البرية قد ملت سياستكم فاستمسكوا بعمود الدين وارتدعوا
لا تلحمن ذئاب الناس أنفسكم إن الذئاب إذا ما ألحمت رتعوا

(١) سورة: المائدة، الآية: ٩٥.

لا تبقرن بأيديكم بطونكم فثم لا حسرة تغني ولا جزع

ولما تم ليزيد أمره ولم يعبأ بقول ناصح انتهز بعض أهل بيته هذه الفرصة لينال الخلافة وهو مروان بن محمد بن مروان فإنه كتب إلى الغمر بن يزيد أخي الوليد يهيجه للمطالبة بدم أخيه وقال في ذلك الكتاب: «أما بعد، فإن هذه الخلافة من اللّه على مناهج رسله وإقامة شرائع دينه أكرمهم اللّه بما قلدهم يعزهم ويعز من يعزهم والحين على من ناوأهم فابتغى غير سبيلهم فلم يزالوا أهل رعاية لما استودعهم اللّه منها يقوم بحقها ناهض بأنصار لها من المسلمين، وكان أهل الشام أحسن خلقه فيه طاعةً وأذبه عن حرمه وأوفاه بعهده وأشده نكاية في مارق مخالف ناكث ناكب عن الحق، فاستدرت نعمة اللّه عليهم وقد عمر بهم الإسلام وكبت بهم الشرك وأهله وقد نكثوا أمر اللّه وحاولوا نكث العهود وقام بذلك من أشعل ضرامها وإن كانت القلوب عنه نافرة. والمطلوبون بدم الخليفة ولاته من بني أمية، فإن دمه غير ضائع وإن سكنت بهم الفتنة والتأمت الأمور فأمر اللّه لا مرد له وقد كتبت بحلك فيما أبرموا وما ترى، فإني مطرق إلى أن أرى غيراً فأسطوا بانتقام وأنتقم لدين اللّه المبتول وفرائضه المتروكة مجانة ومعي قوم أسكن اللّه طاعتي قلوبهم أهل إقدام إلا ما قدمت به عليهم ولهم نظراء صدورهم مترعة ممتلئة لو يجدون منزعاً وللنقمة دولة تأتي من اللّه ووقت موكل ولم أشبه محمداً ولا مروان غير أن رأيت غيراً إن لم أشمر للقدرية إزاري وأضربهم بسيفي جارحاً وطاعناً يرمي قضاء اللّه في ذلك حيث أخذ أو يرمى في عقوبة اللّه حيث بلغ منهم فيها رضاه وما إطراقي إلا لما أنتظر مما يأتيني عنك فلا تدعن ثأرك بأخيك فإن اللّه جارك وكافيك وكفى باللّه طالباً ونصيراً».

وكان مروان في ذلك الوقت أميراً للجزيرة وأرمينية ومعه جيش كبير يأتمر بأمره ولم يزل حتى أقدم على طلب الخلافة متمسكاً بهذا الحبل حتى نالها ولم يكن نيله لها بمزيل أسباب الخلاف والانشقاق في هذا البيت ولا شبهة أن انشقاق البيت المالك يحدث بطبيعة الحال انشقاقاً في قوة الدولة فلا تقوى على مصادمة عدوها.

ثانياً: ظهور العصبية القومية في خراسان وانشقاق القبائل العربية وذلك أن العرب يرجعون إلى شعبين عظيمين قحطان ونزار، وملك العرب القديم كان في اليمن، فلما جاء الإسلام تحول إلى نزار لمكان رسول اللّه ﷺ منهم وكان أمرالنبوة والوحي قد باعد بين الناس وحمية الجاهلية فتآخى اليمانيون والنزاريون ووجهوا قوتهم المتحدة إلى أعدائهم فنالوا في زمن قليل ما لم تنله أمة قبلهم في مثل الزمن الذي ارتفع فيه قدرهم.

ولما طال الزمن تراجع الناس إلى شيء مما كانوا عليه في الجاهلية بسبب أمراء السوء الذين كانوا يحيون لهم تلك الجاهلية من غير أن ينظروا إلى سوء مغبتها وظهر ذلك في أقوال شعرائهم

التي لها أثر شديد في أنفسهم وقد أدرك بعض شعرائهم النتائج السيئة من ذلك فقال الحارث بن عبد الله بن الحشرج الجعدي:

أبيت أرعى النجوم مرتفقاً … إذا استقلت تجري أوائلها
من فتنة أصبحت مجللة … قد عم أهل الصلاة شاملها
من بخراسان والعراق ومن … بالشام كل شجاه شاغلها
فالناس منها في لون مظلمة … دهماء ملتجة غياطلها
يمسي السفيه الذي يعنف بالجهـ … ـل سواء فيها وعاقلها
والناس في كربة يكاد لها … تنبذ أولادها حواملها
يغدون منها في كل مبهمة … عمياء تمنى لها غوائلها
لا ينظر الناس في عواقبها … إلا التي لا يبين قائلها
كرغوة البكر أو كصيحة حبـ … ـلى طرقت حولها قوابلها
فجاء فينا أزرى بوجهته … فيها خطوب حمر زلازلها

وهذا أحسن وصف سمعته في وصف الفتن وغمرها الناس كافة من سفيه وحليم. كان بخراسان واليان مختلفان جاء أحدهما بعد الآخر، فأما أولهما فهو أسد بن عبد الله القسري وهو من اليمن فكان ضلعه مع قومه من أهل اليمن يتعصب لهم وكان شيعته بخراسان قوية إلى قوة الدولة نفسها فلم يكن هناك ما يهيجه. وثانيهما نصر بن سيار وهو من كنانة ثم من مضر فكان ضلعه من قومه إلا أن شيعته بخراسان لم تكن بذاك وقد كان هشام بن عبد الملك بن مروان الذي ولاه يعلم ذلك، فإنه لما استشار فيمن يوليه خراسان بعد أسد كان مستشاره يسمي له أشخاصاً بما لهم من محامد ومذام، فلما جاء ذكر نصر بن سيار قال: إن اغتفرت له واحدة فإنه عفيف مجرب عاقل قال هشام: وما هي؟ فقال المشير: عشيرته بها قليلة، فقال هشام: أتريد عشيرة أكثر مني أنا عشيرته. وهذه جملة صحيحة في زمن قوة الدولة الناشئة عن اتحاد الفاتحين فأما بعد الانصداع فليست بصحيحة.

ظهر الانشقاق في عهد نصر بن سيار هذا بين النزارية واليمانية وكان رئيس النزارية وكبيرهم نصر بن سيار الأمير وكبير اليمانية جديع بن شبيب المعني المعروف بالكرماني، وإنما عرف بذلك لأنه ولد بكرمان، وكان نصر والكرماني قبل ذلك متصافيين إلا أن الفتنة الناشئة عن حمية الجاهلية فرقت بينهما، وكانت النزارية أيضاً منشقة فربيعة في جانب ومضر في جانب. وكان أكثر ربيعة مع شيبان بن سلمة الحروري الخارج على الدولة يطلب العمل بكتاب الله وسنّة رسوله، فكانت هذه الفرق الثلاث متعادية.

obeikandi.com

حصلت حروب بين نصر والكرماني وكانت القوة للكرماني فأجلى نصر عن مرو حاضرة خراسان فهدم اليمنيون دور المضرية فقالت امرأة من ضبة وهي أم كثير الضبية:

لا بارك اللّه في أنثى وعذبها ... تزوجت مضرياً آخر الدهر
أبلغ رجال تميم قول موجعة ... أحللتموها بدار الذل والفقر
إن أنتم لم تكروا بعد جولتكم ... حتى تعيدوا رجال الأزد والظهر
إني استحيت لكم من بذل طاعتكم ... هذا المزوني يجبيكم على قهر

وقال شاعر آخر:

ألا يا نصر قد برح الخفاء ... وقد طال التمني والرجاء
وأصبحت المزون بأرض مرو ... تقضي في الحكومة ما تشاء
يجور قضاؤها في كل حكم ... على مضر وإن جار القضاء
وحمير في مجالسها قعود ... ترقرق في رقابهم الدماء
فإن مضر بذا رضيت وذلت ... فطال لها المذلة والشقاء
وإن هي أعتبت فيها وإلا ... فحل على عساكرها العفاء

في أثناء وقوع هذه الحوادث توفي محمد بن علي إمام الشيعة الذي يدعون إليه وأدلى بالأمر من بعده إلى ابنه إبراهيم وأعلم الشيعة بذلك، فقاموا بالدعوة إليه مكان أبيه. ثم توفي بكير بن ماهان شيخ الشيعة بالكوفة فأقام إبراهيم بن محمد مكانه حفص بن سليمان المعروف بأبي سلمة الخلال وأصله مولى لبني الحارث بن كعب وكان صهراً لبكير بن ماهان فأوصى إبراهيم أن يقيمه مكانه.

واتصل بإبراهيم في تلك الأوقات شاب من نوابغ الشبان وذوي المقدرة والعزيمة وهو أبو مسلم الخراساني وأصله مولى لعيسى بن معقل العجلي اشتراه منه بكير بن ماهان وعنه تلقى أصول التشيع، ثم اتصل بمحمد بن علي (سنة ١٢٥) ثم بابنه إبراهيم وكانت تظهر عليه مخايل النجابة وقوة العزم، وكانت الشيعة بخراسان في حاجة إلى مثله ليشرعوا في العمل بعد أن أمكنتهم الفرصة بما وقعت فيه الدولة الأموية من الخلاف وما يقع فيه عرب خراسان من الانشقاق فاختار إبراهيم أبا مسلم لتلك المهمة وكتب إلى أصحابه إني قد أمّرته بأمري فاسمعوا منه واقبلوا قوله، فإني قد أمّرته على خراسان وما غلب عليه بعد ذلك وكان مما أوصى به أبا مسلم قوله:

«يا عبد الرحمٰن إنك رجل منا أهل البيت فاحتفظ وصيتي. وانظر هذا الحي من اليمن فأكرمهم وحل بين أظهرهم فإن اللّه لا يتم هذا الأمر إلا بهم. وانظر هذا الحي من ربيعة فاتهمهم

في أمرهم وانظر هذا الحي من مضر فإنهم العدو القريب الدار فاقتل من شككت فيه ومن كان في أمره شبهة ومن وقع في نفسك منه شيء وإن استطعت ألا تدع بخراسان لساناً عربياً فافعل فأيما غلام بلغ خمسة أشبار تتهمه فاقتله ولا تخالف هذا الشيخ (يعني سليمان بن كثير) ولا تعصه وإن أشكل عليك أمر فاكتف به مني».

وإنما أمره بتقريب أهل اليمن لأنهم أعداء الدولة الحاضرة للعصبية التي كانت نارها مشتدة بين أهل خراسان إذ ذاك ولهذا السبب أوصاه بالشدة على مضر، فإنهم كانوا أصحاب الدولة. ومما يدل على اعتماد بني العباس على أهل خراسان دون العرب قول الإمام: (وإن استطعت ألا تدع بخراسان لساناً عربياً فافعل). سار أبو مسلم مزوداً بهذه الوصية حتى حل بخراسان وذلك (سنة ١٢٨)، وكانت الحال قد بلغت أشدها بين العرب بخراسان فأقام يدبر الأمور. وبعد سنة تهيأ لزيارة الإمام ومعه عدد كبير من الدعاة، ولما بلغ قومس أتاه كتاب من الإمام يقول فيه: (إني قد بعثت إليك براية النصر فارجع من حيث ألقاك كتابي ووجه إلى قحطبة بما معك يوافني به في الموسم) فعاد أبو مسلم إلى مرو مستعداً للعمل.

دور العمل:

نزل أبو مسلم بقرية من قرى مرو يقال لها سفيذنج وهناك بث دعاته في الناس ليجمعوا إليه فانثال إليه الناس وكان ذلك في رمضان (سنة ١٢٩) ولخمس بقين منه عقد اللواء الذي بعث به الإمام ويدعى الظل على رمح طوله أربعة عشر ذراعاً وعقد الراية التي تدعى السحاب على رمح طوله ثلاثة عشر ذراعاً وهو يتلو قوله تعالى: **﴿أذن للذين يقاتلون بأنهم ظلموا وإن الله على نصرهم لقدير﴾** (١) ولبسوا السواد الذي جعل شعاراً للدولة العباسية وقدم على أبي مسلم الدعاة من أهل مرو بمن أجاب الدعوة.

كان أول ما فعله أبو مسلم أن أمر برم حصن سفيذنج وأقام به هو ومن معه ولما حضر عيد الفطر (سنة ١٢٩) أمر سليمان بن كثير أن يصلي به وبالشيعة ونصب له منبراً في العسكر وأمره أن يبدأ بالصلاة قبل الخطبة بغير أذان ولا إقامة وكانت بنو أمية تبدأ بالخطبة والأذان ثم بالصلاة بالإقامة كصلاة يوم الجمعة فيخطبون على المنابر جلوساً في الجمعة والأعياد. وأمره أن يكبر ست تكبيرات تباعاً ثم يقرأ ويركع بالسادسة ويفتتح الخطبة بالتكبير ويختمها بالقرآن وكانت بنو أمية تكبر في الركعة الأولى أربع تكبيرات يوم العيد وفي الثاني ثلاث تكبيرات ولما تمت الصلاة انصرف هو ومن معه إلى طعام أعد لهم مستبشرين.

(١) سورة: الحج، الآية: ٣٩.

كتب أبو مسلم إلى نصر بن سيار يقول له: (أما بعد)، فإن اللّٰه تباركت أسماؤه وتعالى ذكره عيّر أقواماً في القرآن فقال: **﴿وأقسموا باللّٰه جهد أيمانهم لئن جاءهم نذير ليكونن أهدى من إحدى الأمم فلما جاءهم نذير ما زادهم إلا نفوراً * استكباراً في الأرض ومكر السيّىء ولا يحيق المكر السيّىء إلا بأهله فهل ينظرون إلا سنّة الأولين فلن تجد لسنّة اللّٰه تبديلاً ولن تجد لسنة اللّٰه تحويلاً﴾** [(1)] فتعاظم نصر الكتاب ولا سيما أنه رأى أبا مسلم بدأ فيه بنفسه.

وكان جوابه أن وجه إلى أبي مسلم مولى له اسمه يزيد في خيل عظيمة فوجه إليه أبو مسلم مالك بن الهيثم الخزاعي فالتقوا بقرية تدعى آلين وكانت بين الفريقين موقعة انتهت بانتصار الشيعة وأسر يزيد رئيس جند نصر بعد أن جرح فأمر أبو مسلم بمداواته حتى برأ ثم خيره بين أن يقيم معه ويدخل في دعوته وأن يرجع إلى مولاه سالماً ويعطي عهد اللّٰه وميثاقه ألا يحاربهم ولا يكذب عليهم وأن يقول فيهم ما رأى فاختار الرجوع إلى مولاه وقال أبو مسلم لمن معه: إن هذا سيرد عنكم أهل الورع والصلاح فإنّا ما نحن عندهم على الإسلام.

قدم يزيد على نصر فقال له نصر: لا مرحباً بك واللّٰه ما ظننت استبقاء القوم إلا ليتخذوك حجة علينا، فقال يزيد: هو واللّٰه ما ظننت وقد استحلفوني ألا أكذب عليهم وأنا أقول: إنهم يصلون الصلاة لمواقيتها بأذان وإقامة ويتلون كتاب اللّٰه ويذكرون اللّٰه كثيراً ويدعون إلى ولاية رسول اللّٰه ﷺ وما أحسب أمرهم إلا سيعلو، ولولا أنك مولاي أعتقتني من الرق ما رجعت إليك ولأقمت معهم.

كثرت بعد ذلك وفود الناس على أبي مسلم ووجدت الدعوة في قلوبهم مكاناً صالحاً فضاقت عليه سفيذنج فرحل إلى الماخوان وهي قرية كبيرة من قرى مرو كانت للعلاء بن حريث ولأبي خالد بن عثمان فحصنها وخندق حولها وكانت عدة من معه في الخندق سبعة آلاف رجل.

رأى عرب خراسان أن ما بينهم من هذه الفرقة والحروب، تشد أزر عدوهم وكانوا ثلاث فرق كما قدمنا وكان الكرماني قد قتل في إحدى وقائعه مع نصر وأجلى قومه عن مرو وخلفه في قيادة اليمانيين ابنه علي فكتب نصر إلى شيبان الحروري يقول له: إن شئت فكف عني حتى أقاتله وإن شئت فاتفق معي على حربه حتى أقتله أو أنفيه ثم نعود إلى أمرنا الذي كنا عليه، فهمّ شيبان أن يفعل، ولكن أبا مسلم كانت له عين لا تنام فأرسل إلى علي بن الكرماني يقول له: إنك موتور قتل أبوك ونحن نعلم أنك لست على رأي شيبان، وإنما تقاتل لثأرك فامنع شيبان من صلح نصر فدخل ابن الكرماني على شيبان ولم يزل به حتى ثناه عن رأيه فأرسل نصر إلى شيبان إنك لمغرور

(١) سورة: فاطر، الأيتان: ٤٢ ـ ٤٣.

وايم الله ليتفاقمن هذا الأمر حتى تستصغرني بجانبه.

وفي أثناء ذلك كان أبو مسلم يرسل قواده فيستولون على البلاد من عمال نصر ولا يجدون مقاومة تذكر. ولما رأت ذلك ربيعة وعلمت شدة أمر أبي مسلم أرسلت إلى نصر تطلب منه الموادعة فأجاب إلى ذلك وتوادعوا سنة. بلغ ذلك أبا مسلم فأرسل إلى ابن الكرماني يهيجه بأخذ الثأر فقال: إني ما صالحت نصراً وإنما صالحت شيبان وأنا لذلك كاره وأنا موتور ولا أدع قتاله فعاود القتال وأبى شيبان أن يعينه، وقال: لا يحل الغدر فأرسل ابن الكرماني إلى أبي مسلم يستنصره. وهذا كل ما يريده فأرسل إليه إني معك على نصر، فاشتد ذلك على نصر وكتب إلى أبي مسلم يلتمس منه أن يدخل مع نصر وبعث إليه ربيعة بمثل ذلك كلهم طلب معونة هذا القتال الذي ليست له غاية إلا الفتك بهم جميعاً، فأمرهم أبو مسلم أن يقدم عليه وفد كل منهم حتى يختار ففعلوا وأمر مسلم متكلمي الشيعة أن يختاروا وفد ربيعة وقحطان فإن السلطان في مضر وهم عمال مروان وهم قتلة يحيى بن زيد، ولما قدمت عليه الوفود فعل الشيعة ما أمروا به فنهض وفد مضر تعلوهم المذلة والكآبة ورجع وفد ربيعة وقحطان مسرورين ظافرين ولم يدروا ما خبأه لهم الغيب.

بذلك ظفر أبو مسلم ظفراً عظيماً فإنه فرق كلمة العرب بعد أن كادت تجتمع عليه فقام من الماخوان في جمادى الأولى (سنة ١٣٠) يريد مرو وأرسل إليه ابن الكرماني أن ادخل حائط مرو من قبلك وأدخل أنا وعشيرتي من قبلي، فأرسل إليه أبو مسلم أن لست آمن أن تجتمع يدك ويد نصر على حربي، ولكن ادخل أنت فأنشب الحرب فدخل ابن الكرماني وأنشب الحرب وأمر أبو مسلم أحد قواده بدخول مرو فدخلها وأعقبه أبو مسلم. دخل والقتال دائر بين الكرماني ونصر فأمر الفريقين أن يكفا وهو يتلو: ﴿**ودخل المدينة على حين غفلة من أهلها فوجد فيها رجلين يقتتلان هذا من شيعته وهذا من عدوه**﴾ [(١)]، ومضى أبو مسلم حتى دخل دار الإمارة وهرب نصر مستخفياً.

صفت مرو لأبي مسلم وأمر أحد النقباء بأخذ البيعة على أهلها ونص البيعة: (أبايعكم على كتاب الله وسنّة نبيه ﷺ عليكم بذلك عهد الله وميثاقه والطلاق والعتاق والمشي إلى بيت الله الحرام وعلى ألا تسألوا رزقاً ولا طعماً حتى يبدأكم به ولاتكم وإن كان عدو تحت قدمه فلا تهيجوه إلا بأمر ولاتكم) وأخذ أبو مسلم ثقات أصحاب نصر وصناديدهم فكتفهم وحبسهم ثم قتلهم.

أرسل بعد ذلك إلى شيبان الحروري يدعوه إلى بيعته فأبى وسار عن مرو إلى سرخس فوجه إليه أبو مسلم جنداً، فكانت هناك موقعة قتل فيها شيبان وعدد عظيم ممن معه. وبعد نيل هذا

---

(١) سورة: القصص، الآية: ١٥.

الانتصار عمد إلى ابني الكرماني علي وعثمان اللذين ائتمناه على حياتهما فقتلهما وأكثر أصحابهما.

صفت خراسان كلها لأبـي مسلم فبعث العمال إلى جميع الولايات وأمر أحد قواد قحطبة بن شبيب أن يتبع نصر ومعه لواء عقده له إبراهيم الإمام فسار وراءه من بلد إلى بلد حتى مرض نصر بالري ومات بساوة فأقبل قحطبة بجنوده واستولى على الري فتم للشيعة خراسان وبلاد الجبل ثم سير قحطبة ابنه الحسن فاستولى على همذان ومنها سار إلى نهاوند فحصرها ولحقه بها أبوه فاجتمعا عليها ثلاثة أشهر ثم فتحت وتلاها شهر زور الموصل. سار قحطبة بعد ذلك واغلاً في بلاد العراق فقصده ابن هبيرة أمير العراق من قبل مروان بن محمد وكان اجتماعهما غربـي الفرات على نحو (٢٣ فرسخاً) من الكوفة، وقبل أن تقع بينهما الموقعة الكبرى مات قحطبة فولي إمرة الجيش ابنه الحسن وكان قحطبة قبل موته قد قال: إذا قدمتم الكوفة فوزير آل محمد أبو سلمة الخلال فسلموا الأمر إليه.

جرت أثناء ذلك وقائع انهزم فيها ابن هبيرة فسار منها حتى أتى واسطاً. وقبل أن يدخل الحسن بن قحطبة الكوفة خرج منها محمد بن خالد القسري مسوداً فاستولى على قصرها ولم يكن قد علم بهلاك قحطبة فكتب إليه يعلمه فوصل الكتاب إلى ابنه الحسن فارتحل إلى الكوفة فدخلها في المحرم (سنة ١٣٢) وسلم الأمر لأبـي سلمة الخلال فوجه الحسن إلى قتال ابن هبيرة بواسط وضم إليه قواداً. ووجه حميد بن قحطبة إلى المدائن. ووجه المسيب بن زهير وخالد بن برمك إلى دير قنى. وبعث المهلبـي وشراحيل إلى عين التمر. وبسام بن إبراهيم إلى الأهواز وخرج هو من الكوفة فعسكر عند حمام أعين على نحو ثلاثة فراسخ من الكوفة.

جرت هذه الوقائع بخراسان والعراق ونار الفتنة مشتعلة بالشام والحجاز.

افتضاح الأمر:

مضت هذه المدة كلها وليس عند بني أمية علم بمن تدعو إليه الشيعة، فإنهم كانوا يدعون إلى الرضا من آل محمد ﷺ ولا يعلم السر إلا النقباء والدعاة. أما العامة فمبلغ علمها أنها تدعى لرجل من آل البيت حتى وقع في يد مروان بن محمد كتاب لإبراهيم إلى أبـي مسلم جواب كتاب لأبـي مسلم يأمره فيه بقتل كل من يتكلم بالعربية بخراسان فأرسل مروان في الحال إلى عامله بدمشق يأمره بالكتاب إلى صاحبه بالبلقاء أن يسير الحميمة ويأخذ إبراهيم بن محمد يوجه به إليه ففعل العامل ما أمر به وقبض على إبراهيم، ولما أحس إبراهيم بما يراد به نعى نفسه إلى أهل بيته وأوصى إلى أخيه أبـي العباس وأمر أهله بالسير إلى الكوفة والسمع والطاعة لأبـي العباس. أما إبراهيم فحبس في سجن حران مع جماعة من أعداء مروان من بني أمية، ولم يزل في سجنه حتى

مات. وكيفية موته مبهمة اختلف فيها المؤرخون فمنهم من قال: إنه سقي سماً، ومنهم من قال: هدم عليه بيت فمات، ومما قيل في رثائه:

قد كنت أحسبني جلداً فضعضعني ... قبر بحران فيه عصمة الدين
فيه الإمام وخير الناس كلهم ... بين الصفائح والأحجار والطين
فيه الإمام الذي عمت مصيبته ... وعيلت كل ذي مال ومكين
فلا عفا اللّه عن مروان مظلمةً ... لكن عفا اللّه عمن قال آمين

وأما أهل بيته فتجهزوا يريدون الكوفة حتى قدموها في صفر (سنة ١٣٢) ورئيس القوم وقائدهم أبو سلمة الخلال الذي كان يعرف في ذلك الوقت بوزير آل محمد فأنزلوهم في إحدى دور الكوفة وكتم أمرهم عن سائر القواد أربعين ليلة وكان لا يزال في معسكره بحمام أعين خارج الكوفة.

ويقال: إنه لما سبر أحوالهم عزم على العدول عنهم إلى بني علي، فكاتب ثلاثة من أعيانهم: جعفر الصادق بن محمد الباقر وعبد اللّه المحض بن حسن بن حسن وعمر الأشرف زين العابدين، وأرسل الكتب مع رجل من مواليهم، وقال له: اقصد أولاً جعفر بن محمد، فإن أجاب فأبطل الكتابين الآخرين، فإن لم يجب فالق عبد اللّه المحض فإن أجاب فأبطل كتاب عمر وإن لم يجب فالق عمر فذهب الرسول إلى جعفر بن محمد أولاً ودفع إليه كتاب أبي سلمة، فقال: مالي ولأبي سلمة وهو صنعة لغيري؟ فقال له الرسول: اقرأ الكتاب، فقال جعفر لخادمه: أدن السراج مني، فأدناه فوضع الكتاب على النار حتى احترق، فقال الرسول: ألا تجيبه فقال: قد رأيت الجواب. ثم مضى الرسول إلى عبد اللّه المحض ودفع إليه الكتاب فقرأه وقبله وركب في الحال إلى جعفر وقال: هذا كتاب أبي سلمة يدعوني فيه إلى الخلافة قد وصل على يد بعض شيعتنا من أهل خراسان فقال له جعفر: ومتى صار أهل خراسان شيعتك أنت وجهت إليهم أبا مسلم هل تعرف أحداً منهم باسمه أو بصورته فكيف يكونون شيعتك وأنت لا تعرفهم وهم لا يعرفونك؟ فقال عبد اللّه: كأن هذا الكلام منك لشيء، فقال جعفر: قد علم اللّه أني أوجب النصح على نفسي لكل مسلم فكيف أدخره عنك فلا تمن نفسك الأباطيل، فإن هذه الدولة ستتم لهؤلاء وقد جاءني مثل الكتاب الذي جاءك فانصرف عبد اللّه من عنده غير راضٍ. وأما عمر بن زين العابدين فإنه رد الكتاب وقال: أنا لا أعرف صاحبه فأجيبه. أحس بعض القواد بأمر أبي سلمة فأحبطوا ما أراده وذهبوا إلى الكوفة فقابلوا أبا العباس وسلموا عليه بالخلافة ودخل بعدهم أبو سلمة ففعل كما فعلوا وقد أبقى هذا العمل في نفس أبي العباس ما أبقى فترتب عليه ما يأتي ذكره.

obeikandl.com

خرج أبو العباس يوم الجمعة (١٣ ربيع الأول) فصلّى بالناس وكان في خطبته بعد حمد اللّه والثناء عليه أن افتخر بقرابته من رسول اللّه ﷺ ثم ذكر الخلفاء الراشدين وأثنى عليهم ونعى على بني حرب وبني مروان أثرتهم وظلمهم، ثم قال: «وإني لأرجو ألا يأتيكم الجور من حيث أتاكم الخير ولا الفساد من حيث جاءكم الصلاح وما توفيقنا أهل البيت إلا باللّه. يا أهل الكوفة أنتم محل محبتنا ومنزل مودتنا أنتم الذين لم تتغيروا عن علي ذلك ولم يثنكم عنه تحامل أهل الجور عليكم حتى أدركتم زمننا وأتاكم اللّه بدولتنا فأنتم أسعد الناس بنا وأكرمهم علينا وقد زدتكم في أعطياتكم مائة درهم فاستعدوا فأنا السفاح المبيح والثائر المتيح» وبهذه الجملة الأخيرة لقب السفاح.

كان السفاح إذ ذاك موعوكاً فاشتد به الوعك فجلس على المنبر وصعد داوود بن علي عمه وكان من أفصح بني العباس فخطب خطبة جاء فيها: «إنا واللّه ما خرجنا في هذا الأمر لنكثر لجيناً ولا عقياناً ولا نحفر نهراً ولا نبني قصراً، وإنما أخرجنا الأنفة من ابتزازهم حقنا والغضب لبني عمنا وما كرثنا من أموركم وبهظنا من شؤونكم، ولقد كانت أموركم ترمضنا ونحن على فرشنا ويشتد علينا سوء سيرة بني أمية فيكم وخرقهم بكم واستذلالهم لكم واستئثارهم بفيئكم وصدقاتكم ومغانمكم، لكم ذمة اللّه وذمة رسوله ﷺ وذمة العباس رحمه اللّه أن نحكم فيكم بما أنزله اللّه ونعمل فيكم بكتاب اللّه ونسير في العامة منكم والخاصة بسير رسول اللّه ﷺ» ثم منّى الكوفة بما يحلو في أسماعهم ومدح أهل خراسان بما قاموا به من نصر أهل بيت النبي ﷺ وإعادة حقوقهم. وقال في آخر خطبته: «ألا وإنه ما صعد منبركم هذا خليفة رسول اللّه ﷺ إلا أمير المؤمنين علي بن أبي طالب وأمير المؤمنين عبد اللّه بن محمد وأشار بيده إلى أبي العباس فاعلموا أن هذا الأمر فينا حتى نسلمه إلى عيسى ابن مريم صلوات اللّه عليه».

بعد أن تمت الخطبتان والصلاة خرج السفاح إلى القصر وأجلس أخاه أبا جعفر ليأخذ البيعة على الناس في المسجد، فلم يزل يأخذها عليهم حتى صلّى بهم العصر، ثم صلى بهم المغرب وجنهم الليل فدخل. ثم خرج أبو العباس إلى المعسكر بحمام أعين واستخلف على الكوفة عمه داوود بن علي.

بعد أن بلغوا هذا المبلغ بقي عليهم أن يقضوا على مروان بن محمد والقوة العظمى التي بالجزيرة وعلى ابن هبيرة والقوة التي معه بواسط.

كان مروان بحران معه قوة عظيمة ومنها سار حتى أتى الموصل فاختار أبو العباس من أهل بيته عمه عبد اللّه بن علي ليكون قائداً للجنود التي اختيرت لحرب مروان، وكان ملتقى هذين الجيشين على نهر الزاب الأعلى وهو أحد روافد نهر دجلة يأتيها من الشرق، وكانت الواقعة شديدة

جداً انتهت بانتصار عبد اللّه وجنده فهرب مروان واحتوى عبد اللّه معسكره كله وذلك لإحدى عشرة خلون من جمادى الآخرة (سنة ١٣٢) وكان مع مروان من الجنود (١٢٠ ألفاً) من نخبة أهل الشام وخيرة جنودها. انهزم مروان حتى أتى حران وعاملها ابن أخيه أبان بن يزيد بن محمد فأقام بها نيفاً وعشرين يوماً، ولما دنا منه عبد اللّه رحل عنها بأهله وولده وقدم عبد اللّه فلقيه أبان مسوداً مبايعاً له ودخل في طاعته فأمنه ومن كان بحران والجزيرة.

مضى مروان حتى أتى قنسرين وعبد اللّه يتبعه ثم مضى منها إلى حمص ثم أتى دمشق وعليها الوليد بن معاوية بن مروان، فلما أحس باقتراب عبد اللّه رحل عنها فجاءها عبد اللّه ودخلها عنوة معترضاً أهلها وقتل الوليد بن معاوية أميرها فيمن قتل.

مر مروان بالأردن وفلسطين ومضى حتى أتى الفسطاط ومنها خرج إلى بوصير وهي قرية من مركز الواسطي ببني سويف.

أما عبد اللّه بن علي فجاءه كتاب من أبي العباس يأمره أن يوجه صالح بن علي في ملاحقة مروان فسار صالح في ذي القعدة (سنة ١٣٢) وكان يسير على ساحل البحر والسفن حذاءه حتى وصل إلى مصر ومن هناك سار حتى أتى بوصير وهناك قتل مروان بن محمد لثلاث بقين من ذي الحجة (سنة ١٣٢) وبقتله انتهت دولة بني أمية من المشرق وتوطدت دعائم الدولة.

وأما يزيد بن عمير بن هبيرة فإنه لما انهزم من جيش خراسان أتى واسطاً وتحصن بها، وكان مشيروه قد أشاروا عليه بأن يذهب إلى الكوفة فيقاتل حتى يقتل أو يظفر وحذروه واسطاً كيلا يصير في حصار وليس بعد الحصار إلا القتل، فخالف تلك الشورى فسير أبو سلمة الجيوش تحت قيادة الحسن بن قحطبة فكانت بينهم وقائع ثم احتمى ابن هبيرة ومن معه بحصونهم. ولما طال الأمر أرسل أبو العباس أخاه أبا جعفر على الجيش فاحتدم القتال بين الفريقين وظلوا هكذا أحد عشر شهراً. ولما أتى ابن هبيرة قتل مروان بن محمد وطلب من معه الصلح وجرت السفراء بينه وبين أبي جعفر حتى جعل له أماناً وكتب به كتاباً مكث يشاور العلماء فيه أربعين ليلة حتى رضيه ابن هبيرة ثم أنفذه إلى أبي جعفر فأنفذه أبو جعفر إلى السفاح فأمر بإمضائه وكان رأي أبي جعفر الوفاء له بما أعطاه، وكان السفاح لا يقطع أمراً دون أبي مسلم فكتب أبو مسلم إلى السفاح يقول له: إن الطريق السهل إذا ألقيت فيه الحجارة فسد لا واللّه لا يصلح طريق فيه ابن هبيرة.

ولما تم الكتاب خرج ابن هبيرة إلى أبي جعفر فدخل عليه وحادثه ساعة وبعد أيام أمر أبو جعفر بقتل ابن هبيرة ومداد الأمان لم يجف وقتل معه عدة من وجوه أصحابه ورثاه منقذ بن عبد الرحمٰن الهلالي بقوله:

منع العزاء حرارة الصدر والحزن عقد عزيمة الصبر
لما سمعت بوقعة شملت بالشيب لون مفارق الشعر
أفنى الحماة الغر أن عرضت دون الوفاء حبائل الغدر
مالت حبائل أمرهم بفتى مثل النجوم حففن بالبدر
عالى نعيهم فقلت له هلا أتيت بصيحة الحشر
للّه درك من زعمت لنا أن قد حوته حوادث الدهر
من للمنابر بعد مهلكهم أو من يسد مكارم الفخر
فإذا ذكرتهم شكا ألماً قلبي لفقد فوارس زهر
قتلى بدجلة ما ينهنهم إلا عباب زواخر البحر
فلتبك نسوتنا فوارسهم خير الحماة ليالي الذعر

وبقتل ابن هبيرة انطفأ مصباح للدولة الأموية.

قامت الدولة العباسية ودخل في حوزتها هذا الملك الطويل العريض الذي وضع أساسه خارج جزيرة العرب أبو بكر خليفة رسول اللّه ﷺ وشاد بنيانه أمير المؤمنين عمر بن الخطاب ومكن قواعده وزان جوانبه بنو أمية بن عبد شمس وسنأتي على وصفه بعد أن نبدي ملاحظة بشأن قيام هذه الدولة.

قامت هذه الدولة باسم الدين. والسلاح الذي استعمل فيها للتأثير في العقول هو إعادة الأمر لآل محمد ﷺ ونزعه من آل مروان الذين وصفهم الداعون بما شاؤوا من صفات النقص والبعد عن الدين ووضعوا في ذمهم أحاديث أسندوها إلى رسول اللّه ﷺ لا يعرفها رجال النقد من المحدثين.

كان ذلك السلاح يصل إلى شغاف القلوب فيثيرها من مكمنها.

اختار القوم لغرس دعوتهم بلاداً كانت قبل مهداً للتشيع وحب آل البيت وهي الكوفة وخراسان فقديماً قامت بلاد العراق بنصر علي بن أبي طالب وقامت لتثأر بالحسين بن علي وجاهدت في نصرة زيد بن الحسين وابنه يحيى، فلم تترك فرصة لذلك إلا انتهزتها ثم اختاروا بلاد خراسان لتكون مشرقاً لقوتهم وأذاعوا في ذلك أحاديث كثيرة فأعدوا قلوب أهليها لذلك. وكان الذين دخلوا في الإسلام من الفرس أقرب من غيرهم إلى التأثر بآراء الشيعة، لأنهم لا يفرقون بين خلافة وملك وكان الملك عندهم ينال بالإرث وهو منحة يمنحها اللّه للأسرة المالكة فمن عارضها فيه فهو خارج عليها يستحق المقت واللعنة فإذا ألقي إليهم في التعاليم أن

بني أمية غصبوا أهل بيت النبي حقهم سهلت إلى ذلك إجابتهم واعتقدوا أن بني أمية يجب قتالهم وتخليص هذا الحق المقدس منهم، ولهذا كان من الوصايا التي بنيت عليها سياسة الدعوة العباسية: (إن قدرت ألا تُبقي بخراسان من يتكلم بالعربية فافعل) وهي وصية لم تلاحظ فيها العواقب البعيدة وإنما لوحظت فيها الفوائد العاجلة.

وفوق ما تقدم كانت أمة الفرس ذات تاريخ عظيم قديم وكانت لها السيادة على أكثر الأمم العربية بالعراق واليمن ثم رأوا دولتهم قد دالت وصاروا موالي للعرب يتحكم العرب في رقابهم وفي أموالهم فوجدوا هذه فرصة يستردون بها شيئاً مما كان لهم من العظمة التاريخية ويذلون هؤلاء العرب الذين سطوا عليهم، فرأوا أنهم بمساعدتهم لهذه الدولة الجديدة يكونون أصحاب الكلمة المسموعة فيها والسلطان النافذ. وتأثير هذا السبب في الخاصة أكثر منه في العامة: فهذا النزاع كان في الحقيقة بين العرب والفرس لا بين بني أمية وبني العباس وحدهم.

استعان القوم بأمر هذه الدعوة على عرب خراسان بما كان بينهم من الخلاف الذي أحيته العصبية الجاهلية، وهذه العصبيات عند العرب لا يمكن إخمادها إلا من طريق الدين. وكان تأثيره قد ضعف إذ ذاك. على أن الأمراء كانوا يزيدون من سورته حدة كأنهم رأوا أن سلطانهم لا يتم إلا إذا اجتمعت الأمة وقد أثبت التاريخ أن جميع الأغبياء من الملوك والأمراء متى رأوا مصلحتهم في إيقاع الخلاف والنفرة بين أممهم وعملوا بذلك يزول بسرعة ملكهم.

استعمل في الوصول إلى إحياء الدولة العباسية عسف شديد جداً، فقد كان من الوصايا التي ألقيت إلى أبي مسلم: (واقتل من شككت فيه). ولا يخفى أن حزم أبي مسلم كان يسوقه إلى كثرة الشك فيمن دخل تحت لوائه من عرب وعجم فلم يكن يتأخر لحظة في قتل من دخله أقل ريب فيه حتى وصل إلى غرضه. وسنبين أن هذه القاعدة أتت على أكبر رجال هذه الدولة وعلى أبي مسلم أيضاً. وقد أحصى من قتله أبو مسلم صبراً فكان ستمائة ألف.

ولم يكن القوم يأنفون من الغدر بمن ائتمنهم وهذا على خلاف ما كانت عليه العرب في جاهليتهم وفي بدء إسلامهم وفي فتوحهم، فقد كان الوفاء عندهم من ألزم ما يجب عليهم ووصايا أمرائهم في ذلك معروفة مشهورة، فلما دخل بينهم هؤلاء الأغنام سهلوا لهم طريق الغدر بمن ائتمنهم على حياته واستحقوا بذلك ما حلاهم به محمد بن علي بن طباطبا في كتابه المعروف بالفخري في الآداب السلطانية قال: اعلم أن الدولة العباسية كانت دولة ذات خدع ودهاء وغدر وكان قسم التحيل والمخادعة فيها أوفر من قسم القوة والشدة.

وصف المملكة الإسلامية حين استيلاء بني العباس:

كانت المملكة الإسلامية تمتد من أقصى المشرق عند كاشغر إلى السوس الأقصى على